حسن المحاضرة للسيوطي

دراسة تحليلية نقدية

د. عبد الرازق الطظاوي القرموط

يعتبر كتاب حسن المحاضرة في ملوك مصر والقاهرة ، من أنفس الكتب التي صدرت عن أعلام مدرسة التاريخ المصري ، وأعذبها موردا ، واصفاها منهلا ، وأسدها منهجا ، وأوضحها فصولا ، وأوفاها استيعابا وشمولا . سلك فيه طريقا قصدا ، ليس بالطويل المستطرد ، المشوش ، ولا بالمقتضب الخالي من النفع والجدوى .

جلال الدين السيوطي :

والسيوطي مؤلف هذا الكتاب واحد من أبرز الشخصيات الادبية في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، فقد حاز بفكره في كافة مجالات العلوم العربية ، فكتب في القرآن والحديث والفقه والفلسفة والتاريخ والبلاغة والادب وفلسفة اللغة وغيرها كما سيظهر بعد ، وهو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي محمد بن جلال الدين الخضيري . وينتهي نسبه الى أسرة فارسية كما حدث عن نفسه (١) ، وكانت هذه الاسرة تعيش قبل قدومها الى مصر في حي الخضيرية في بغداد (٢) . واستقر بها المقام في أسيوط قبل مولد صاحبنا بعشرة أجيال على الاقل .

---

(١) طبقات المفسرين ص ٢١ ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٦

(٢) راجع عنها : معجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ١١٢

وقد ولد السيوطى في غرة رجب سنة ٨٤٩ هـ (٣ أكتوبر ١٤٤٥م) بالقاهرة . وكان أبوه من العلماء البارزين المشـــهورين بالتدين والعلم . وقد برز أبوه في عهد الخليفة العباسي المستكفى بالله ، وتولى كتابة العهد له .

وقد حمله والده وهو صغير الى الشيخ محمد المجذوب من الاولياء فباركه . ولكن القدر لم يتركه ليرى ولده وقد شب عن الطـوق ، بل عاجلته المنية وعمر الغلام لم يبلغ السادسة الا أنه كأحد أبنـاء طبقته من أبناء الشيوخ والعلماء تلقى العلم على شيوخ أجلاء ، وعلماء أفاضل (١) .

فقد حفظ القرآن وهو دون الثـــامنة من عمره ، ثم شرع في الاشتغال بالعلم منذ نعومة أظفاره فحفظ متون الفقه والنحو ، وأخذ العلم على مشايخ وقته ، فلازم العلامة شيخ الاســـلام علم الدين البلقينى في الفقه الى أن توفي ، ثم لزم ابنه من بعده ، فلما توفي ابن البلقينى لزم الشيخ المناوى ودرس عليه علوم الدين واللغة .

كما أخذ عن الشيخ الشرمساحى ، وتقى الدين الشبلى الحنفى ، ومحيى الدين الكافيجى وغيرهم (٢) . كثـــير حتى انه عبـــر عن كثرتهم في كتابه حسن المحاضرة ، وقد أفرد لهم مؤلفا خاصا أسماه المعجم والذى بلغ عددهم نحو مائة وخمسين شيخا ويسمى « حاطب ليل وجارف سيل » .

وظل السيوطى يواصل الدراسة حتى تفقه في علوم عصره (٣) ، وأجيز بتدريس الـ ربية وهو في نحو السابعة عشرة من عمـــره .

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٦
(٢) راجع حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٧ - ٣٣٨
(٣) طبقات المفسرين السيوطى ص ٢٢

وأجيز بالتصدى لتدريس الفقه والفتيا وهو في نحو السابعة والعشرين (١) .

وقد تولى بعض الوظائف منها بذل المشورة في المسائل الفقهية ، وشيخ الشيوخ في المدرسة الشيخونية ، ومشيخة الصوفية بتربة برقوق . ثم انتقل الى مشيخة المدرسة البيبرسية ، التى تعتبر أكبر خوانق القاهرة وأوسعها أوقافا على حد قول ابن العماد (٢) . ولكنه عزل عنها بمكيدة طلبتها لانه أساء معاملتهم وحرمهم من بعض الوظائف ، ومن بعض الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها . (٣) فانعزل عن الناس ، ولزم بيته بجزيرة الروضة مكبا على التأليف . ورفض خلال عزلته عن الناس أن يستقبل أحدا من مريديه ، وأغلق نوافذ بيته المطلة على النيل ، وظل كذلك لمدة عشرين عاما تقريبا حتى توفاه الله في ١٨ من جمادى الاولى سنة ٩١١ هـ (١٧ أكتوبر ١٥٠٥ م) .

وقد ترك لنا رصيدا ضخما من المؤلفات في شتى مناحى الفكر في علوم القرآن والحديث والادب والتاريخ والمعارف العامة . حتى بلغت مؤلفاته حين ألف كتاب حسن المحاضرة الذى سنتحدث عنه نحوا من ثلاثمائة مؤلف (٤) ما بين كبير في مجلد وفي كراريس ، وفي أوراق وفي صفحات ، بل في صفحة واحدة . ومع ذلك فقد اختلف الكتاب في الحصاء عدد مؤلفات صاحبنا حتى ذكر بعضهم أنها بلغت ستمائة ، وذكر آخرون أنها تزيد على أربعمائة ، وأحصي له فلوكل ٥٦١ مؤلفا (٥) .

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٧
(٢) شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٢
(٣) السيوطى : طبقات المفسرين ص ٢٦
(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٩ وما بعدها .
(٥) جلال الدين السيوطى مجموعة محاضرات ص ١٠٩

منها في الحديث ١٦٨ مؤلفا أهمها الجامع الكبير أو جمع الجوامع ثم الجامع الصغير ، الدر المنتثرة في الاحاديث المشتهرة ، الازهار المتناثرة على الاخبار المتواترة ، اتمام النعمة ٠ اللمع أو أسباب ورود الحديث ٠

ومنها في التفسير وعلوم القرآن ٢٥ مؤلفا تقريبا أهمها : الاتقان في علوم القرآن ، لباب النقول في أسباب النزول ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، التحبير في علوم التفسير ، مجمع البحرين ومطلع البدرين ٠

وفي الفقه كتبا أهمها : الازهار الغضة في حواشي الروضة ، الحواشي الصغرى ، مختصر التنبيه ، الاشباه والنظائر ، جمع الجوامع ، الجامع في الفرائض وغيرها ٠

وفي العربية ترك مؤلفات منها : شرح ألفية ابن مالك ، الفريدة في النحو والصرف ، جمع الجوامع وشرحه المسمى همع الهوامع ، الفتح القريب على مغني اللبيب ، التوشيح على التوضيح ، شرح كافية ابن مالك وغيرها ٠

وفي التاريخ له مؤلفات قيمة منها : تاريخ الخلفاء ، حسن المحاضرة ، طبقات الحفاظ ، طبقات النحاة الكبرى والوسطى والصغرى ، وطبقات العشرين ، معجم الشيوخ وغيرها ٠ وله في غير هذه الفنون كتب منها : مختصر احياء علوم الدين ، عقود الجمان في المعاني والبيان ، فموارد الفوائد ، قلائد الفرائد ، الفلك المشحون وغيرها ٠

حسن المحاضرة :

قال السيوطي في مقدمته ، هذا الكتاب سميته حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، أوردت فيه فوائد سنية ، وغرائب مستعذبة مرضية تصلح لمسامرة الجليس ، وتكون للوحدة نعم

الانيس ، وفقنا الله لما يحبه ويرضاه ، وجعلنا ممن يحمد قصده ولا يخيب مسعاه بمنه وكرمه .

بهذه الكلمات بدأ السيوطى كتابه عن مصر التى عاش بين أحضانها ، ينعم بخيرها ، يهفو الى رحابها ، ثم عن له أن يذكر مصادر كتابه كما هى عادته في الكتب المطولة كبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، وكتاب الاتقان في علوم القرآن وغيرها فقال : وقد طالعت على هذا الكتاب كتبا شتى منها : فتوح مصر لابن عبد الحكم ، وفضائل مصر لابى عمر الكندى ، وتاريخ مصر لابن زولاق ، والخطط للقضاعى ، وتاريخ مصر لابن ميسر ، وايقاظ المتغفل وايعاظ المتأمل لتاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج الزبيرى ، والخطط للمقريزى ، والمسالك لابن فضل الله ، ومختصره للشيخ تقى الدين الكرمانى ، ومناهج الفكر ومناهج العبر لمحمد ابن عبد الله الانصارى ... وتاريخ الاسلام للذهبى ، ومرآة الزمان لسبط بن الجوزى ، وطبقات الحفاظ للذهبى ، وطبقات القراء له ، وطبقات الشافعية للسبكى ، والاسنوى ، وطبقات المالكية لابن فرحون ، وطبقات الحنفية لابن دقماق ، والبداية والنهاية لابن كثير ... الخ الثلاثين كتابا التى ذكرها (١) .

والمتصفح لكتاب السيوطى هذا يتبين له سعة اطلاعه ودقته وتحمسه لكتابة تاريخ مصر طوال العصور التاريخية ، لانها حامية الملة والدين ، راعية الاسلام والمسلمين ، قاهرة الغزاة والمعتدين .

كما أن مما يزيد في قيمة هذا الكتاب أن بعض مصادره التى اعتمد عليها ، لم تصل الينا الا عن طريق كتاب آخرين مثل خطط المقضاعى ، وبعضها لم يصل الينا حتى الآن فيها نعلم ، مثل

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣ - ٤

سجع الهديل في أخبار النيل لاحمد التيفاشي ، والسكردان لابن أبى حجـــة ٠

كما أنه يعتبر موسوعة عن مصر ، أو دائرة معارف لها ، اتبع فيه السيوطى المنهج العلمى المعروف في كتابة التاريخ الاسلامى في العصر الاسلامى ، فقد نقل كثيرا عن مؤلفـــات الذين عاصروه والذين سبقوه ، وكان النقل مألوفا في العصور الوسطى ٠ وربمـــا دعاه الى ذلك قلة النسخ التى كانت تكتب من المؤلفات ، وعـــدم انتشارها انتشارا كافيا بسبب غلاء الرق وعدم اختراع الطباعة (١) وسيظهر ذلك أثناء تناولنا لهذا الكتاب ٠

ان كل روايات الكتاب كان يسندها السيوطى الى صـاحبها على طريقة الاسناد في الحديث ، وهى تعتمد على الجرح والتعديل، اذا كان المنقول حديثا أو أثرا ٠ فقد ذكر في آخر فصول الكتاب أحاديث أجرى عليها منهج المحدثين (٢) ٠

أما اذا نقل عن مصدر أو مرجع فانه كان حريصا على الكتابة ما أخذ عنه أو منه قبل ذكره لاى خبر من الاخبار ، أو حادثة من الحوادث ، وربما يذكرها بعد الخبر ، وهذا المنهج يدل على أمانته العلمية ، ودقته المطلقة ٠ وهذا المنهج هو ما نعوده في جل مؤلفاته اذ يذكر في احدى كتبه (٣) « لا ترانى أذكر في شيء من تصـانيفى حرفا الا معزوا الى قائله من العلماء ، مبينا كتابه الذى ذكر فيه»٠

---

(١) جلال الدين السيوطى : بحوث ندوة (بحث لدكتـــورة سيدة الكاشف) ص ١٣٨ ٠

(٢) راجع جـ ٢ ص ٤٠١ ، ٤٠٨ ، ٤١١ ، ٤١٨ وكذلك جـ ١ ص ١٢ ، و ٤ ، ١٦ وغيرها ٠

(٣) المزهر في علوم اللغة جـ ٢ ص ٣١٩

فاذا عنت له فكرة معينة ، أو أراد اضافة معلومات جديدة ، أو عند مقارنة له ، كان يقول بعد أن يذكر الحادثة أو الامر الذى يتحدث عنه : « قلت » . ورغم قلة مثل هذه الامور الا أنها تدل على عقليته وفكره واطلاعه وترجيحه (١) .

يمتاز الكتاب بتنوع الفصول التى تدفع القارىء الى الاستمرار في مطالعته دون ملل أو ضجر ، لانه يعمد في كثير من الاحيان الى الاختصار المفيد ، كما أنه يلتزم بالعناوين التى يضعها ، ولا يخرج عنها كعادة المؤرخين المعاصرين له ، مع سهولة أسلوبه ، ويسر عباراته ، ودقة اختياره ، تنعكس فيه دراساته اللغوية وغيرها .

ابتدأ السيوطى كتابه بذكر فضائل مصر ، فأشار الى المواضع التى ذكرت فيها في القرآن الكريم حيث نقل عن الحسن بن زولاق أن ذلك في ثمانية وعشرين موضعا ، ولكنه وجدها أكثر من ذلك تعلق بقوله : بل أكثر من ثلاثين موضعا ، سواء ذكرت باسم مصر أو المدينة أو الارض ، أو الربوة ذات القرار . بل استطرد في رواية أخرى عن عدد الآيات التى ذكرت فيها الارض ويقصد بها مصر فقد نقل عن ابن عباس أنها عشرة مواضع فقال قلت : بل في اثنى عشر موضعا أو أكثر (٢) .

كما ذكر الآثار التى ورد فيها ذكر مصر أيضا ، فروى عن ابن عبد الحكم ، وابن الربيع الجيزاوى ، والقرطبى والديلمى وابن الجوزى والامام الشافعى ، والحافظ الدمياطى ، الحاكم ، والبيهقى (٣) وغيرهم . الا أنه للامانة العلمية ، والدقة التى

---

(١) راجع مثلا ج ١ ص ٦٠٣ ، ج ٢ ص ٥١ ، ٢٣٢

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥ ، ٨ .

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ١١ - ١٩

التزمها ، وجد أن هناك بعض الآثار أوردها ابن زولاق في كتابه ، ولم يجد لها سندا في كتب الحديث فذكرها على مسئولية صاحبها . ومن ذلك ما روى عن كعب قال : لولا رغبتى في بيت المقدس ما سكنت الا مصر . قيل : ولم ؟ قال : لانها بلدة معـــافاة من الفتن . ومن أرادها بسوء كبه الله على وجهه ، وهو بلد مبارك لاهله فيه (١) .

كذلك ذكـر الســيوطى كل ما يتصل بتحديد اقليم مصـــر وحدودها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، ولمـاذا سميت مصر ، نسبة الى مصر بن بيصر بن حام ، ثم ذكر عواصم مصر في العصر الاسلامى حتى بناء القاهرة ، التى أورد ما روى عن اسمها ، وكيف أن جوهر سماها المنصورة ثم غيرها المعز عندما قدم الى مصر ، كما ذكـــر قصة تسمية القاهرة وموقف المنجمين من ذلك ولم يفته أن يذكـر ما حدث بمصر بعد دولة العبيديين ، وظهور صلاح الدين وبنـاؤه سورا جامعا بين مصر القاهرة يبتدىء من القلعـــة وينتهى الى ساحل النيل بمصر . وذكر سور مصر في عهد الايوبيين ، وذكـــر أنها أربع وعشرون كورة (٢) .

وقد ذكر ما يتصل بمعاملة أهل مصر بعد فتحها ، ووصـــية الرسول صلى الله عليه وسلم بهم ، وأنهم قوة للاسلام ، وفي رباط الى يوم القيامة ، وأنهم خـــير أجنـاد الارض . وقد وصـل برواة الحديث الى عمر بن الخطاب ، وأم سلمة ، وأبى ذر الغفارى وأبى هريرة ، وأبى الدرداء . ولم يفته من ذلك أن يذكر المصاهرة بين القبط والعرب ، فقد ذكر ما قاله ابن عبد الحكم : صاهر الى القبط ثلاثة من الانبياء : ابراهيم عليه السلام تسرى هاجر ، ويوسف

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٢١
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢٣ - ٢٩

عليه السلام تزوج بنت صاحب عين شمس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ترى مارية (١) ٠

كما اهتم السيوطى اهتماما كبيرا بتاريخ مصر الفرعونية ، وحاول ابرازه في صورة مفصلة منظمة ، بدأها بذكر من نزل مصر من أولاد آدم ، فكان شيث أول من قدم الى مصر وسكن الجبل ، وسكن أولاد قابيل أرض الوادى ٠ وأن سفينة نوح طافت بأرض مصر ، فباركها نوح عليه السلام ، ولم يفته أن يذكر من ملك مصر قبل الطوفان ، ومن ملكها بعد الطوفان حتى عهد يوسف عليه السلام ، والذى ظهرت فيه الغيوم ، وذكر سبب التسمية ، بأن عمل يوسف في حفر الخلجان التى تنهى مياه البحيرة الى النيل لتصلح للاقامة ثم في سبعين يوما ، فلما رأى الملك هذا الانجاز الرائع قال لوزرائه هذا عمل ألف يوم ، فسميت الغيوم (٢) ٠

ذكر كثيرا من الامور التى تهم الدارسين للتاريخ المصرى القديم لتأكيدها وتقريرها ، أو لتوضيح ما فيها ٠ وأثناء ذلك تحدث عن بختنصر ، وظهور الروم والفرس على سائر الملك الذين في وسط الارض ، فقاتل الروم أهل مصر ثلاث سنين ، ثم تصالحوا على دفع شيء لكل عام على أن يمنعوهم ، ويكونوا في ذمتهم ٠ فلما غلب الفرس الروم دخلوا مصر بعد مقاومة وصالحوا أهلها على ما صالحهم عليه الروم ٠ وشاء الله أن يظهر الروم على فارس وهو الذى أشار اليه القرآن الكريم في قوله تعالى : الم غلبت الروم في أدنى الارض ٠٠٠ الخ (٣) وكان الفرس قد أسسوا بمصر حصن اليون أو قصر الشمع (٤) ٠

---

(١) المرجع السابق جـ ١ ص ١١ ـ ١٧
(٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠ ـ ٣٩
(٣) سورة الروم ١ ، ٢
(٤) راجع حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٩ ـ ٥١

وقد شرفت أرض مصر بمقدم كثير من الانبياء اليها فذكر السيوطى من دخل مصر منهم ابتداء من ادريس عليه السلام فابراهيم واسماعيل ويعقوب ويوسف ، والاسباط (اثنا عشر) من ولد يعقوب ، لوط ، موسي ، هارون ، ويوشع ، دانيال ، أرميا ، وعيسي بن مريم عليهم السلام • ثم ذكر ما يؤيد دخول من ذكرناهم مصر سواء من القرآن أو السنة أو الروايات الصحيحة ، الا أنه توقف عند اسماعيل فقال : رأيت عدة أيضا من الكتب المؤلفة في مصر ولم أقف في شيء منها على ما يشهر لذلك ، وأنا أستبعد صحته ، فانه منذ أقدمه أبوه الى مكة وهو رضيع مع أمه ، لم يقل أنه خرج منها ، ولم يدخل أبوه مصر الا قبل أن يملك أمه (١) • وبلغ عدد من دخل مصر باتفاق واختلاف اثنين وثلاثين نبيا غير النسوة الاربع (٢) •

ولم يفته أن يذكر الصديقين بمصر كماشطة ابنة فرعون ، وسحرة موسي ، وحكماءها في الدهر الاول ومنهم ادريس (هرمس) ، وفيثاغورس ، وأفلاطون وبطليموس •

واهتم السيوطى كذلك بعجائب مصر وآثارها ، فتحدث عن أهرام الجيزة ودهشور وميدوم وذكر أن بناء الاهرام كان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة ، كما أشار الى طريقة البناء وما في هذه الاهرام من مخازن مملوءة بالاموال الجمة والآلات والتماثيل المعمولة من الجواهر النفيسة ، وآلات الحديد والسلاح الذى لايصدأ والزجاج الذى ينطوى ولا ينكسر وغير ذلك • كما أورد مختلف القصص

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٢
(٢) المرجع السابق ص ٥٧
(٦) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٨ - ٦٣

الخاصة باعجاب المسلمين بهذه الآثار كالمأمون العبـــاسي ، وابن طولون ، وصلاح الدين الايوبى وغيرهم • ولم يفته أن يذكر اختلاف المؤرخين في سبب بناء الاهرام ، هل هى مقابر وخزائن كتب ، أو هياكل الكواكب • أو ملجأ من الطوفان • كما ذكر ما قيل في الاهرام من أشعار • وذكر العجائب الاخـــرى التى بأرض مصر ، كدرى سمنود ، اخميم ، دندرة ، الفقيوم ، منف ، جبل الطير بالصعيد ، وعين شمس ، النيل ، المسلات ، وغيرها (١) •

ويبدو أنه نقل هذه العجائب عن خطط المقريزى ، رغم وجود اختلاف بسيط في التفصيلات اذ هى في خطط المقريزى أوســع من حسن المحاضرة (٢) •

على الرغم من هذه المعلومات عن تاريخ مصر القديم وآثارها فيمكننا القول أن دراسة هذا التاريخ مكفولة لعلمـــاء المصريات والآثار للتحقق من صدق ما كتبه السيوطى وغيره عن هـــذه الفترة السحيقة ، ومطابقة التاريخ بالبحوث والدراسات الاثريةوالتاريخية لمادة الحديثة ، ليتسنى لنا الحكم حينئذ على قيمة هـــذا النوع من التاريخ • ولكننا نقول أن معالجة السيوطى لتاريخ مصر القـديم كان وفق منهج يستهدف بيان ما اختص به وطنه من مركز ممتاز في العالم القديم ، وما قدمه وطنه كذلك من خدمات جليلة للحضارة الانســـانية •

انتقل السيوطى بعد ذلك انتقالا موفقا الى دراسة تاريخ مصر في ظل الاسلام ، فقد جعل همزة الوصل بين المرحلة القديمةوالجديدة حدثين عظيمين كشف كل منهما عن ادراك العرب لاهمية مصر وخبرتهم الواسعة بشئونها أيضا ، والحدث الاول هـــو مجيء

---

(١) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٦٥ - ٨٣

(٢) خطط المقريزى جـ ١ ص ٣٠ - ٣٢ (بولاق) •

عمرو بن العاص الى مصر قبل ظهور الاسلام ، الحـــدث الثانى ارسال الرسول صلى الله عليه وسلم حاطب بن أبى بلتعه بكتاب الى المقوقس صاحب بالاسكندرية يدعوه الى الاسلام والدخـــول فيه • وقد اعتمد السيوطى في سرد وقائع الحدث الاول على القصص التاريخى الذى شاع في مصر منذ القرن الثالث الهجرى ، والذى خلد ذكرى العلاقات التجارية القديمة التى قامت بين مصر وبلاد العرب قبل الاسلام ، أما الحدث الثانى فقد اعتمد فيه على سرد الوقائع الثابتة فقد نقل عن فتوح مصر لابن عبد الحكم ، كما سرد في ايجاز كتب الرسول الكريم الى سائر حكام البلاد الاخرى ، وخص الكتاب الى المقوقس بالتفصيل ، مع شرح الظروف والملابسات التى أحاطت بوصول مبعوث الرسول وموقف المقوقس ، ومصير الهدية البشرية وهى ماريه القبطية وزواج الرسول منها ، وهى من قـــرية حفن التابعة لمقاطعة أنصفا ـ مدينة الاصلة الآن التابعة لمركز ملوى• نسيوط ـ وهو بهذا الزواج يوضح بيان الروابط القوية التى أخذت تنمو بين مصر وبلاد العرب في صدر الاسلام • وان العرب حين وفدوا نفتح مصر وجدوا بهما أصهارا وأرحاما ، وأنهم امتزجوا بأهلهـــا في سرعة مدهشة (١) •

استعرض السيوطى الفتح الاسلامى لمصر ، متتبعا الزحف الذى قام به عمرو بن العاص من العريش قاصدا مصر ، في أسلوب يدعو الى الاعجاب والتقدير ، فلم يقف عند مجرد سرد الحقائق وانما ألقى عليها أضواء جاءت وليدة الدراسة المستفيضة والجهـد العظيم ، فأوضح أن فتح مصر لم يكن الا معـــارك بين العـــرب والروم • وأن المصريين وقفوا منذ اللحظة الاولى نتيجة نصـــيحة الاسقف بنيامين وتعاليمه لهم موقف المرحب بالجيوش العـــربية الاسلامية ونظروا اليها نظرة المحرر لهم من بقة الروم ، كمـــا

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٩٤ ـ ١٠٤

أجاد الربط بين بيناءين وأحداث الفتح فقد كتب لاهل البلاد يبشرهم بان عهد الطغيان قد انتهى ، وأن عصرا جديدا من الحرية أخذ يشرق على البلاد ، ويطلب منهم تقديم كل معونة لعمرو ، وقد كان ذكر المسئولة (٢) ٠

عمد السيوطى الى مزج الاحداث التاريخية بالمسرح الجغرافي للبلاد وذلك عند وصفه لحصار العرب للاسكندرية ، اذ أوضح أن تلك المدينة تمتعت بحصون قوية متصلة الاطراف ، تعلوها المجانيق الهائلة ، لصد الهجوم الذى يأتيها من الجانب البرى ، على حين يقف البحر من خلفها حارسا يدفع عنها أى عدوان بحرى ٠ ولما كان الجيش العربى يفتقر اذ ذاك الى السفن البحرية ، فقد طال حصاره للاسكندرية ، حتى خشي الخليفة عمر بن الخطاب أن يكون السبب هو ركون الجند الى الدعة ، أو لفتور حماستهم للقتال ، فأرسل الى عمرو كتابا يظهر فيه دهشته من ابطائه الفتح ، وحدد له بنفسه وقتا يبادر فيه بالهجوم على الاسكندرية والعمل على فتحها ، وذلك يوم الجمعة عند الزوال ٠ وتم ذلك ، وفتح الله على المسلمين ودخلوا الاسكندرية (٢) ٠

بعد الفتح انتدب عمرو بن العاص أحد رجال المخلصين وهو معاوية بن حديج ليزف الى الخليفة في المدينة المنورة بشرى الاستيلاء على الاسكندرية ، اذ طلب معاوية من عمرو أن يكتب له كتابا فرفض عمرو اعتمادا على ثقته في رسوله « وما تصنع بالكتاب الست رجلا عربيا فبلغه الرسالة ، وما رأيت وما حفرت ، كما أوضح السيوطى في روايته مدى لهفة الخليفة على سماع أخبار مصر ، وفرحه العظيم بدخول الاسلام مصر ، وسجوده شكرا لله ٠

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٦ ـ ١١٨
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١١٩ ـ ١٢٠

واستهدف السيوطى بما ذكره عن موقف عمرو ومعاوية قدرة العرب على نقل الروايات في ثقة وأمانة ، والاشادة بعلو كعبهم في هذا الميدان من قوة الذاكرة . كما ترك السيوطى بما ذكره دراسة قيمة عن فتح العرب لمصر ، تشهد له بصفات المؤرخ الكبير ،وتؤكد ما تمتع به من خصال حميدة ، وقـــدرات عالية عـــلى الدرس والتحصـــيل .

واذا كان السيوطى قد ذكر روايات كثيرة عن فتح مصر نقلها عن ابن عبد الحكم والمقريزى وغيرهما الا أنه يستشف مما ذكـره أن عوامل النصر للمسلمين ترجع الى :

١ ـ موقف أقباط مصر من العرب ، فقد كان جيش البيزنطيين المدافع عن مصر يضم الكثير من القبط ، الذين أيدوهم ، والتجأوا اليهم ، فلم يخلصوا في الدفاع عنها ، كما أنه بعد رفض الامبراطور هرقل الصلح واتهامه للمقوقس ، التقى بعمرو بن العاص ،وعرض عليه الموقف ، وأكد له ولاء القبط وعونهم ، وطلب منه عـــدم مصالحة الروم ، بل بالسيف يخضعون ، فأجابه عمرو الى ما طلب على أن يضمنوا له الجسرين ، ويقدموا له الاســـواق والضيافة والجسر ما بين الفسطاط والاسكندرية ، ففعلوا وصارت القبط لهم أعـــوانا (١) .

٢ ـ الروح القتالية الوثابة التى تحلى بها العرب ، وحرصهم على الشهادة ، يتجلى ذلك واضحا من موقف عبادة بن الصـــامت وثباته أمام المقوقس ، وقوله تعبيرا عن اخوانه المسلمين عنـدما أراد الحاكم اغراءه بالمـال « أن نعيم الدنيا ليس بنعيمنا ورخاءها

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢١

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١١٦ ، ١١٨ ، خطط المقريزى ج ١ ص ٣٩٢

ليس برخاء : انما النعيم والرخاء في الآخرة ، وبذلك أمرنا ربنا ، وأمر به نبينا » (١) ٠

لم يفت السيوطى أن يوضح موقف الروم بعد الفتح العربى لمصر اذ أنهم لم ينسوها وخيراتها على الرغم من الهزائم التى نزلت بهم ، بل ظلوا يمنون النفس بالعودة اليها دون اهتمام بكراهية المصريين لهم ، لذلك نراهم سنة ٢٥ هـ - ٦٤٥ م يعودون اليها بحملة كبيرة تولى قيادتها رجل داهية يسمى منويل كان خبيرا بقتال العرب ، وقد استطاعت هذه الحملة فعلا الاستيلاء على الاسكندرية والزحف جنوبا نحو الفسطاط لاعادة السيطرة على القطر كله ، ولكنها منيت بهزيمة قاسية في النهاية عادت أدراجها الى البحر لا تاوى على شيء ٠ وقد روى السيوطى هذه الاحداث في أمانة ونزاهة ، وكشف عن نواحى الضعف التى سهلت للحملة دخول الاسكندرية اذ لم يكن للعرب اسطول حربى ، وذلك ليأخذوا حذرهم ، ويعدوا العدة لمثل هذه الامور (٢) ٠

ركز السيوطى على حقيقة هامة ارتبطت بفتح مصر وسياسة العرب المالية فيها ، وذلك ببيان أن رخاء مصر يتوقف على ثلاثة أمور لتسود الطمأنينة بين الناس حتى يمكنهم أداء واجبهم الوطنى وما عليهم من التزام وهذه الثلاثة هى : ادارة سليمة تعرف حاجات البلاد وأهلها ثم مالية متوازية تمثل الموارد الثابتة والمصروفات الحقيقية ، وأخيرا رقابة ادارية حازمة توجه العاملين الى الطريق القويم ٠ وواضح مما ذكره السيوطى أن الادارة العربية اتخذت من المصريين سندا وعونا ، ووكلت مقاليد الامور اليهم ، ليديروا شئون بلادهم بما يكفل لها الرخاء والتقدم ، كما استفاد

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١١١

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٩ - ١٦٢

عمرو بن العاص من مشورة بنيامين في تنظيم مالية البلاد ، ومواعيد الجباية ولذلك لم يثقل العرب كاهل المصريين ، ولم يرهقوهم من أمرهم عسرا ، بل راعوا العدل والرأفة والرحمة بهم ومعهم ، واهتموا كذلك بمرافق البلاد فلم يجعلوها كالبقرة الحلوب بلا رعاية ، وانما صرفوا من العائد على البلاد وأهلها ، وما بقى بعد ذلك أوصلوه الى بيت المال بالمدينة ، وقد جرت بسبب ذلك مراسلات بين عمرو بن الخطاب خليفة المسلمين ، وعمرو بن العاص والى مصر بهذا الخصوص ، حتى اقتنع الخليفة بسياسة عمرو • وهذه المراسلات التى أورد السيوطى نصوصها تعتبر مقارنة طريفة بين وجهتين من وجهات نظر الحكم ، مع بيان الاساليب التى اعتمد عليها كل منهما في تبرير رأيه (١) •

أخذ السيوطى في توضيح وضع مصر وأهلها بعد الفتح العربى، فذكر الامتزاج السلمى الذى بدأ بين العرب الذين فتحو مصر وبين أهل البلاد ، وهذا الامتزاج الذى بدأ على عهد عمرو بن العاص في ظل التنظيم الاجتماعى الذى اشتهر في مصر باسم «نظام الارتباع» اذ كانت القبائل العربية تخرج بمقتضى هذا النظام من معسكراتها بالفسطاط الى القرى المصرية في كل ربيع حيث يمارس أفرادها الصيد والتدريب • وتمت عملية الارتباع وفق قواعد محددة بعيدة عن الارتجال ، وحسب نظم تنبثق مجراها العام دون انحراف أو اضرار • وجاءت الخطوط الرئيسية لنظام الارتباع في خطبة عمرو بن العاص الذى ألقاها فيهم قبل ارتحالهم ، فحدد لهم الموعد ، ومناهم بما سينالهم ، كما أوصاهم بالمصريين خيرا « واستوصوا بمن جاورتموهم من القبط خيرا » حذرهم من بعض الامور ، وحدد لهم وقت العودة الى الفسطاط فصار هذا النظام

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٥ - ١٥١ •

الدقيق وتكراره كل سنة وسيلة لتوسيع الروابط الاجتماعية بين القبائل العربية وبين الاهالى • فقد كان لكل قبيلة مكان محدد ، وغدت الفسطاط أشبه بمركز الدائرة لنظام الارتباع ـ مدته ثلاثة أو أربعة شهور ـ ولم تلبث بعض القبائل ان اتخذت من مناطق الارتباع أماكن دائمة لها ، حتى غدت الديار المصرية تشهد مجتمعا جديدا يتكون نتيجة ذلك (١) •

وكان من الامور المهمة والدقيقة في نفس الوقت التى تناولها السيوطى بالدراسة حديثة عن أهل الذمة في مصر ، وقد أطلق السيوطى اصطلاح أهل الذمة على المصريين قبل الاسلام بمعنى تبعيتهم للروم أو دخولهم في ذمة الروم مقابل حماية الروم لهم ، وفي نظير أن يدفع المصريون ضريبة للروم كل عام • وهو ما حدث أيضا بعد فتح العرب لمصر على كل واحد منهم ديناران لا أكثر بحيث يعفى منها الشيخ الفانى والصغير والذى لم يبلغ الحلم والنساء ، وهى نظير حماية المسلمين لهم وأموالهم ، والدفاع عنهم وعن أرضهم وأعراضهم وقد تراوح عدد اليهود بمصر وقت الفتح ما بين ٤٠ ألف ، ٧٠ ألف كما ذكر السيوطى • وقيل أنه ترحل في الليلة التى خافوا فيها دخول عمرو سبعون ألف يهودى (٢) •

لم يهمل السيوطى الجانب الحضارى بل تحدث عن الخطط بعد أن استقر العرب في الفسطاط في موضع الدار التى تعرف اليوم بدار الحصي (٣) • وقد انضمت القبائل بعضها الى بعض في هذا الفناء ، وتنافسوا في المواضع ، فولى عمرو بن العاص معاوية بن حديج التجيبى ، وشريدة بن سمى الغطيفى وعمرو الخولانى ، وحيويل بن ناشرة المعافرى لانزال الناس ، والفصل بين القبائل •

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٣ ـ ١٥٥ •
(٢) حسن المحاضرة ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣ •
(٣) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٩١ •

كما تحدث عن الجامع الذى أنشأه عمرو بن العاص مكان فسطاطه ليؤم فيه المسلمين في الصلوات وليكون مكان التشاور وتدبير المصالح ، ورسم الخطط الدفاعية ، ولم يفت السيوطى أن يذكر أول من بنى بمصر غرفة وهو خارجه بن حذافة ، وان طلب الخليفة الى عمر أن يهدمها • كما اختط عمرو حمام الفار ، ولم ينس الحديث على احتطاط الجيزة ، وبيان القبائل التى أقامت بها • كما لم يفته أن يتكلم عن جبل المقطم الذى وقفه الخليفة المسلمين على من مات منهم ، فكان أول من دفن به رجل من المعافر يقال له عامر • فقيل (١) : عمرت ، ومنذ ذلك الوقت وحتى أيامنا الحاضرة اختص المقطم بهذه الصفة ، وان شارك الاحياء الاموات في الاقامة به •

اهتم السيوطى ببيان علاقة مصر بجيرانها في الجنوب (النوبة كما يسميهم) وفي الغرب افريقية ، وبين أهمية موقع مصر بالنسبة لهم ، وما يفرض الموقع عليها من حماية جيرانها من كل خطر خارجى أو عدوان عليها ، مع مد يد المساعدة لهم ، وأن تعمل على حفظ هيبتهم وكرامتهم • وأوضح السيوطى أن سبب هذا الاتجاه بعد فتح مصر انما هو بقاء الروم بها ، وان ذلك يستدعى بالضرورة اخراجهم منها عندما تسنح لهم الفرصة ، أو على الاقل مؤقتا حماية الاطراف الغربية من شرهم (٢) •

ولما كانت الاسكندرية عاصمة الاقليم ، فقد أطال السيوطى الكلام عنها ، وعن آثارها القديمة كالمنارة التى قيل أنها مبنية بحجارة مهندمة مضببة بالرصاص على قناطر من زجاج ،وهى التى حظيت بعناية السلطان الملك الظاهر بيبرس الذى رممها وأصلح من شأنها ، وعمود السوارى ، والملعب الذى يجتمعون فيه في يوم في

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٣٠ - ١٣٩ •
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٤ •

السنة ، ويرمون باكرة للتسلية . والمسلتان ، والقبة الخضراء وغيرها . وقد ذكر السيوطى أن عمرو بن العاص دخل ملعب الاسكندرية حين أتى الى مصر للتجارة في زمن الجاهلية وقد أورد السيوطى رواية ابن عبد الحكم بطولها رغم ما فيها مما لا يقبله العقل (١) .

وبخصوص مدينة الاسكندرية في العصر الاسلامى ، فقد فصل السيوطى القول حولها ، فقد أطنب في ذكر فتحها ، ثم عودة الروم اليها بحملتهم البحرية ، وذكر ما أحدثوه في المدينة ، وما صنعوه بها فباهلها ، وكيف استطاع المسلمون أن يردوهم ويستعيدوا المدينة مرة أخرى ، وأدى به ذلك الى الحديث عن فتح مصر هل فتحت عنوة أو صلحا ، وتوصل الى نتيجة مرضية . كما أبرز السيوطى أهمية مدرسة الاسكندرية الدينية منذ فجر الاسلام في مصر ، اذ المعروف أنها كانت زمن الفتح من أهم مراكز الثقافة اليونانية ، وكان بها مكتبة من أضخم المكتبات في العالم . ولكن لم يمض على الفتح الاسلامى قرنان حتى كانت الاسكندرية مركزا ثقافيا عربيا مشعا ، وكانت ملتقى للفقهاء المالكية الذين نشروا مذهب الامام مالك في مصر . وقد ذكر السيوطى مشاهير الصحابة والتابعين والطبقات التى تليهم والائمة المجتهدين الذين عاشوا في الاسكندرية ، والذين أخذ عنهم العلماء والفقهاء في مصر وفي غيرها من بقاع العالم الاسلامى . فهناك المستورد بن سلامة ابن عمرو القهرى ومسلمة بن مخلد والعلاء بن كثير ، وغيرهم (٢) .

وآن للسيوطى بعد ذلك أن يذكر كتاب الامام محمد بن الربيع الجيزى المعروف « بدر السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة »

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٨٩ - ٩٦ .
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١١٩ وما بعدها ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

فلخصه وضم اليه ما فاته ، ورتبه على حروف المعجم ، مبتدءا بحرف الهمزة ، وعلى امتداد ثمان وثمانين صفحة من كتابه ، ذكر فيها ثلاث وتسعين ومائتى ترجمة عن ابن الجيزى ، مضيفا اليها احدى وعشرين ومائة ترجمة لم يذكرها • ثم ذكر الكنى والاسماء المبهمة وأسماء النساء (١) ، ثم ذكر من كان بمصر من مشاهير التابعين الذين رووا الحديث سبعين ترجمة موجزة موفيه بالغرض ، في عشر صفحات (٢) • كما ذكر صغار التابعين طبقة قتادة والزهرى في سبع صفحات لاحدى وخمسين ترجمة (٣) وطبقة أخرى أصغر من التى قبلها ، حيث ترجم لثمان وأربعين ترجمة في سبع صفحات (٤) • ثم ذكر مشاهير أتباع التابعين الذين خرج لهم أصحاب الكتب الستة من أهل مصر ، سبعا وثلاثين ترجمة في خمس صفحات ونصف (٥) • ثم طبقة تليها في سبع صفحات لثلاث وأربعين ترجمة (٦) ثم طبقة تلى هذه في أربع صفحات لثلاث وعشرين ترجمة (٧) ، وهى موجزة جدا لا تتعدى الترجمة منها السطور الثلاثة ، وبعض التراجم لا يكمل سطرا •

وعلى هذا المنوال ذكر السيوطى من كان بمصر من الائمة المجتهدين فذكر منهم ٧٧ ترجمة في خمسين صفحة (٨) ، ثم من

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ من ص ١٦٦ ـ ٢٥٤ •
(٢) من ص ٢٥٥ ـ ٢٦٤ •
(٣) من ص ٢٦٥ ـ ٢٧١ •
(٤) من ص ٢٧٢ ـ ٢٧٨ •
(٥) من ص ٢٧٩ ـ ٢٨٤ •
(٦) من ص ٢٨٤ ـ ٢٩١ •
(٧) من ص ٢٩١ ـ ٢٩٤ •
(٨) من ص ٢٩٥ ـ ٣٤٤ •

كان بمصر من حفاظ الحديث (١) ، والمحدثين الذين لم يبلغوا درجة الحفظ ، ثم الفقهاء لا الشافعية ، فالمالكية فالحنفية ثم الحنابلة الذين قال عنهم ، وهم قليل جدا ، ولم أسمع بخبرهم الا في القرن السابع وما بعده (٢) . كما ذكر من كان بمصر من الصلحاء والزهاد والصوفية ، وأئمة النحو واللغة والوعاظ والعصاص والشعراء والادباء وغيرهم في تتابع وتسلسل (٣)

وقد نجح السيوطى نجاحا كبيرا في ترجمة علماء مصر الاسلامية ، والتعريف بهم وبنشاطهم العلمى ، ولا شك أن ذلك الاهتمام يعكس دراساته ، وتفوقه في الدراسات الفقهية وغيرها من الدراسات كاللغوية والتاريخية - كما أن هذه الجماعات التى ذكرها من العلماء والتى تعتبر أهم دراسات هذا الكتاب ، التى عزز بها السيوطى دراساته ، وظهرت بصورة واضحة محبة هذه الجماعات على اختلاف ألوانها لوطنهم مصر ، وحنينهم اليها اذا اضطرتهم الظروف الى مفارقتها ، وحرصهم على العودة الى مصرهم العزيزة الغالية . ومازالت تلك سمة من سمات المصريين حتى الآن . فهو يذكر أن شاعرا مصريا اسمه محمود بن محمد بن الحسين بن السدى الشهير كشاجم ، استطاب مصر بعد اقامته فيها ، فلما رحل عنها تشوق اليها ، فلما عاد اليها عبر عن فرحته بقوله :

قد كان شوقى الى مصر يؤرقنى
فالآن حدت وعادت مصر لى دارا (٤)

---

(١) من ص ٣٤٥ ـ ٣٦٦ .
(٢) من ص ٣٦٧ ـ ٤٨٤ .
(٣) من ص ٤٨٥ ـ ٥٧٧ .
(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٦٠ .

واذا كان العلماء هم مشاعل الحضارة وحملة الفكر ، فقد كان للامراء الذين تولوا أمر البلاد دورهم الكبير ، لذلك أفرد لهم فصلا خاصا تناول فيه من تولى مصر من حين الفتح الى أن ملكها بنو عبيد ، ويقصد بهم الفاطميين (١) • ولكنه فيما يبدو تحامل عليهم ، وظهر تحامله أكثر على الحاكم بأمر الله فقد نسب اليه بعض الامور الغريبة ، حتى أنه نقل عن ابن الجوزى ادعاءه النبوة ، وذكر عن أمير عاصره يدعى ازدمر الطويل ان اعتقاده كان قريبا من اعتقاد الحاكم ، وكان يروم أن يتولى المملكة ، فلو قدر الله له بذلك لفعل نحو ما فعله ، وذكر أنه أطلعه على ما في ضميره ، وطلب منه أن يكون على اعتقاد ، ولكن لجأ الى الله بالدعاء عليه حتى هلك (٢) •

وما يزيد من رأى السيوطى في الفاطميين ، ما ذكره نقلا عن ابن خلكان من أنهم كانوا يكتبون القابا في ورقة تصلح للخلفاء حتى اذا تولى واحد منهم لقبوه ببعض تلك الالقاب ، فاتفق أن آخر من ولى منهم العاضد ، ولم يكن لمن بعده من الخلافة سوى الاسم فقط لاستيلاء وزرائهم على الامور ، وحجرهم عليهم (٣) •

ولما كان التاريخ سلسلة متتابعة الحلقات يسلم بعضها الى بعض ، فقد حاول السيوطى أن يربط بين العصور الاسلامية التى مرت بمصر ، وهى مرتبطة ببغداد أو بدمشق أو مستقلة بذاتها كالطولونية والاخشيدية والفاطمية والايوبية والمملوكية • لذلك نراه يفرد عناوين خاصة لتلك الاتجاهات ، فبجانب ما سبق نراه يفرد لامراء بنى أيوب حتى اتخذها الخلفاء العباسيون دار

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٧٨ ـ ٥٩٢ •
(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٠٣ •
(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٦٠٩ •

خلافة (١) . ثم ذكر من قام بمصر من الخلفاء العباسيين (٢) . ولخصنا نلاحظ عليه .

أولا : أنه أخذ يتوسع في أخباره ابتداء من ولاية أحمد بن طولون واستقلاله بمصر ، وان كان استقلالا اسميا فقط ، وهذا يوضح لنا رؤيته لتاريخ المصريين كابن من أبنائها .

ثانيا : أنه ربط بين حسن المحاضرة وتاريخ الخلفاء فقد ذكر أبياتا شعرية للعماد الكاتب عن السلطان صلاح الدين الايوبى الى الملك نور الدين يبشره باقامة الخطبة لبنى العباسي بمصر في المحرم سنة ٥٦٦ هـ فأحال الى تاريخ الخلفاء (٣) .

ثالثا : انه لم يكتب تواريخ بعض الاحداث كاملة فمثلا يقول سنة خمس وستين ، ولا ندرى ما يقصده هى ستمائة خمس وستين ، أم خمسمائة ، أم أربعمائة ، وان كان يعتمد فيما يبدو على متابعة القارىء وحرصه وذكائه .

رابعا : اهتمامه بأخبار صلاح الدين اهتماما كبيرا مع الاشادة بجهوده في الفتح والغزو ، وقد يكون مرد ذلك دينيا ، أو سياسيا ، أم مذهبيا .

خامسا : ان السيوطى اعتمد في مؤلفه على كتب المعاصرين للفترة التاريخية التى يريد الحديث عنها فعلى سبيل المثال : اعتمد في العصر الايوبى على كتب ابن شامة ، والسبكى ، والعماد ، واليافي ، الذهبى ، ابن خلكان وغيرهم . وفي العصر المملوكى على

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣ - ٣٩ .
(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٥ - ٩٢ .
(٣) تاريخ الخلفاء ص ٤٤٦ ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٦ .

تاريخ الجزرى والنجـــوم الزاهرة وكتب ابن الجـوزى وابن كثير ، والعينى والمقريزى وغيرهم .

سادسا : بالنسبة لانقراض الخلافة ببغداد سنة ٦٥٦ هـ نجده قد أطنب ، فمهد لذلك بمقدمة طويلة ذكر فيها أمورا غريبة طبيعية وغير طبيعية ، وكأنها كانت نذيرا بهـذا التدمير الذى لحقها وان بعـــدت عنها ، فهـو يذكر من ذلك ريحا عاصفا هبت بمكة أزالت شعار الســواد وظلت احدى وعشرين يوما ، وطغيان الماء ببغداد واتلافه شيء كثير ، وهجوم الفرنج على دمياط وحريق حلب ومكة ، واحتراق المسجد الاقصى وغير مما لايصدقه عقل ولكنه الجمع وفقط .

سابعا . تتبع السيوطى أخبار الخلافة في مصر بعـد انتقالها اليها بشيء من التركيز والدقة ، فذكر أخبار الخلفاء وما صادفهم من تولية وعزل ، واحتفالات التنصيب ، والاحتفالات العامة ، وذلك كله تعبيرا عن مشاعره نحوهم ، إذ أنه كان صديقا حميما للخليفة العباسي المتوكل على الله ، وهـــذا ما دعاه الى أن يخالف جميع المؤرخين الســـابقين عليه الذين اهتموا بتاريخ سـلاطين المماليك لا الخلفاء العباسيين .

ثامنا : بالنسبة لقيام الخلافة في مصر ، استطرد السيوطى فذكر فصـلا عنها ، وعن المدن التى أقيمت فيها ، وهـــذا تطويل لا مبرر له وان ربط بين الخلافة والعلم والايمان فهما مع الخلافة أينما كانت (١) . كما ذكر الفرق بين الخلافة والملك والسلطنة شرعا . وذكر من يطلق عليه السلطنة من حيث المصطلح ، والقاب سـلطان مصر ، وجلوسه في دار العدل للمظالم ، وموكبه .

---

(١) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٩٤ .

واذا كان السيوطى قد ذكر الخلافة والسلطة ، فلم يفته أن يذكر بقية عناصر الحكم في مصر في عصر المماليك الذين عاصرهم ، فذكر أصحاب السيوف والاقلام ، فذكر الحاجبية والحجوبية والدوادارية والخازندارية الخ هذه الوظائف (١) . كما ذكر قضاة مصر ، حيث افاض في ذلك حتى كان هذا الفصل ان الفصول الممتعة القيمة في الكتاب . ولما كان القضاء في أول الامر لا يعرف المذهبى الذى استمد فيما بعد فقد كان القاضي يفصل في كل الامور مستمدا أحكامه من الكتاب والسنة ثم الاجتهاد ، وأخذ السيوطى في سرد القضاة ابتداء من قرة بن أبى العاص (ت ٩٤ هـ) الى ولى الدين أحمد بن أحمد السيوطى الذى عزل في جمادى الآخرة سنة ٨٨١ هـ ، مرورا بقضاة العباسيين والفاطميين والايوبيين والمماليك مع ذكر بعض آثار القضاة وقضاياهم وأخلاقهم (٢) . والحق يقال : أن السيوطى أجاد في هذا الفصل اجادة كبيرة . كما ذكر قضاة كل مذهب حين ظهر التعصب فتعددت المذاهب لذلك .

ولما كان لبعض الوظائف مكانة عالية ، جعلت السيوطى يفرد لها عنوانا خاصا يتناولها تحت ما يخصها منه . فالوزارة تعدل السلطنة أيام المؤلف ، والوزير كان نائب الخليفة يفوض اليه أمور المملكة لذلك نراه يتناول الحديث عن قدمها حتى انه أوصلها الى ما قبل الطوفان . ثم تحدث عن الآيات والاحاديث التي تناولها ، وظهورها في الفهم الاسلامى ، وتطورها حتى عصره ، مع ذكر الفترات التى خلت فيها مصر ان الوزير (٣) . ولكن المأخوذ على السيوطى في ترجمات الوزراء الايجاز ، ولكنها تؤدي

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٠ ـ ١٣٤ .
(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣٥ ـ ١٩٢ .
(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٣ ـ ٢٢٩

الغرض الذى أراده المؤلف لا كما نريد ، اذ لو كان كذلك لبلغ الكتاب أضعاف ما هو عليه . ولكن أراد أن يقف القارىء على مدى الثبات والاضطراب في هذه الوظيفة . وكان آخر وزير في عهده كما ذكر هوكرتباى الاحمر (ذو الحجة سنة ٩٠١ هـ) كما نجده قد عرض لكتابة السر لاهميتها ، اذ هى في مرتبة كاتب الانشاء ، ولايخفى علينا أهمية هذا الديوان وأهمية من فيه (١) .

وبعد أن فرغ السيوطى من الحديث عن أرباب الوظائف آن له أن يتحدث عن جوامع مصر والقاهرة ومساجدها ومدارسها وخوانقها تلك المؤسسات التى كان لها أثرها الواضح ، ودورها الكبير على الحركة الفكرية في مصر الاسلامية ، كما أنها أزكت روح الوعى بين المصريين وغيرهم ممن قدم اليها لينهل من علم وفكر أقطابها (٢) وأظن أنه نقل عن خطط المقريزى كثيرا مما كتبه ان لم يكن جله ، حيث نراه قد توقف عند سنة ٨١٩ هـ ، في عهد المؤيد شيخ المحمودى .

تناول السيوطى كل الامور التى تتصل بالدولة ونظامها ، ومعاملتها كيلا ووزنا ، وحمائم رسائلها وكيف أنها بدأت منظمة في عهد نور الدين محمود الشهيد سنة ٥٦٧ هـ ، كما ذكر عادة الملكة في الخلع والزى ، وعادة السلطان في الكتابة على التقليد ، كما ذكر الطريق المسلوك منها الى مكة ، وكيفية البشارة بتمام الحجج ، وغير ذلك من الامور التى تتصل بخيرات مصر من هواء ونبات وحيوان وماء ، وما بها من مختلف الانواع البرية والمائية التى خلقها الله في السهل والجبل (٣) .

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٣٠ ـ ٢٣٦
(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٣٩ ـ ٣٠٩
(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣١٠ ـ ٣٢٥

ولما كان النيل هو عماد حياة المصريين ، فقد أطنب السيوطى في الحديث عنه ، وذكر كل ما يتصل به في سبع وثلاثين صحيفة ، من منبعه ومجراه ومصبه ، وفترة سيره ، وخلجانه وفروعه ، وفضله ومزاياه ، ومقاييسه ، ووفائه ،والبشارة به . ذكر ذلك كله بروايات ربما تتناقض ، وربما تكون غير مقبولة . المهم أنه نقل هذه المعلومات عن المسيحى وابن عبد الحكم وسبط بن الجوزى وابن جماعة والتيفاشي ، وابن المتوج والادريسي وغيرهم . نقل ذلك كله بدون تدقيق أو تحقيق في بعض الاحيان . ولم يفته أن يذكر البطاقة التى أرسلها الخليفة عمر الى النيل ، وكذلك الاشعار التى قيلت فيه لقيس بن معدكرب وابن نباته ، وظافر الحداد وابن الساعاتى وابن النقيب وابن عبد الظاهر والصفدى وابن دانيال وغيرهم (١) .

وأخيرا تناول السيوطى الآثار النبوية والاشعار الادبية ، والاشارات الصوفية عن الزروع والفواكه والزهور والرياحين . لئلا يترك شيئا يتصل بمصر أرضا وناسا وتاريخا الا وذكره (٢) .

وقد أشار الى الازمات التى أصابت مصر على مدى تاريخها الطويل ، كالغلاء والزلازل والبراكين والطواعين والرياح والغرائب ابتداء من سنة ٣٤ هـ الى سنة ٨٤١ هـ ، تعرض خلالها لذكر الامور الغريبة مما يجعل القارىء يشعر بمدى ما عاناه المصريون ، والسلبية أحيانا في مواقف بعض الامراء والسلاطين . وهو أيضا من الفصول الممتعة في الكتاب ، ولكنه يضع مسئوليتها على عاتق من نقلها عنه كالذهبى وابن العماد وابن الجوزى والمقريزى غالبا (٣) .

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٤٠ ـ ٣٧٧
(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٣٩١ ـ ٤٤٨
(٣) راجعها بالتفصيل في حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٧٤ ـ ٣٠٩

ورغم قيمة الكتاب وأهميته في غالب كل النواحي التي عرض لها السيوطي ، والتي من أجلها عد من الموسوعات فان انا بجانب الملاحظات السابقة ملاحظات أخرى في تقييم الكتاب ونرى :

١ – أنه لا يوجد تطابق أو تجانس في طول الفصول أو قصرها التي يوردها السيوطي في حسن المحاضرة ، وانما يتوقف طولها وقصرها على حسب الروايات والمعلومات التي توافرت لديه،والتي يظن أنها تفي بالغرض الذي يرومه .

٢ – انه ذكر ترجمات موجزة جدا في بعض الاحيان لا تؤدي غرضا ، ولا تشفي غلة المتعطش الى معرفة هذه الترجمات ، فقد كان أحيانا يذكر الاسم فقط ، أو يذكره بدون ترجمة واضحة ، حتى أنه من الصعب أن نجد ترجمات لبعضهم في مكان آخر . وهذا غير غالب على ترجماته وانما قليل بالنسبة للعدد الضخم الذي ذكره .

٣ – ذكره لاساطير عجيبة وخرافات ، وأشياء خارقة للعادة ، تلك التي تدل على مبالغة المؤرجين المسلمين في ذلك الوقت وقبله، والتي تعتبر ظاهرة خاصة ابان الحديث عن عصور ما قبل الاسلام كما هنا .

٤ – حشي كتابه بكثير من الشعر حول الحبوب والرياحين ومختلف الانواع بما هو أدخل في باب الادب منه في باب التاريخ ، وان كان بودنا أن يذكر بعض المعلومات المفيدة حول هذه الانواع .

٥ – في موقفه من الفاطميين ظهر أثر هذا الموقف على كثير من الامور المتعلقة بهم من حيث تراجمهم أو الآثار التي خلقوها كالمساجد والجوامع وغيرها . وهذا يعتبر تحيز يبرأ منه التاريخ الذي يكون المؤرخ فيه كالقاضي لا يحيد ولا يميل .

٦ ـ خلطه بين الشعر والنثر أثناء حديثه عن النيل وما فيه ، فقد ذكر كلام القاضي الفاضل وغيره ضمن هذا الشعر ، فهو لذلك يعتبر النثر المسجوع شعرا .

٧ ـ خلط السيوطى بين مفهوم الجزية وهى ضريبة الرأس وبين الضرائب الخراجية المفروضة على الاراضي الزراعية ، فاستخدم الجزية وهو يقصد الخراج والعكس .

وبالجملة فهو كتاب قيم مفيد ، حاول فيه السيوطى تغطية كل نواحى تاريخ مصر وحضارتها منذ أقدم العصور حتى زمنه ، وقد وفق فى ذلك الى حد بعيد ، اذ لم يترك أى معلومة تتصل بتاريخها القديم والاسلامى الا وذكرها ، كما لم ينس أن يتحدث عن فضائلها ومميزاتها ، وطيبة أهلها وتعلقهم بها وحنينهم اليها .

فجزاه الله خير الجزاء بما قدم للانسانية من جليل الاعمال .

دكتور / عبد الرازق الطنطاوى القرموط